ظاهرة الفسق متفشية في الإنسانية كلها، وبذلك ضمت أهل الكتاب، والآية هي: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد :٢٦] .

ومعنى ذلك أن آيتي الحديد الآية ٢٦ والآية ٢٧، تتحدثان عن ظاهرة واحدة متفشية في وسطين من الأوساط ما كان ينبغي أن تتفشى فيهما لوجود أسباب المناعة وهي الكتب التي أنزلها الله لإصلاح حال البشرية، فإن لم تنتفع تلك الشعوب بهذه الكتب فثمة سر هو الذي أرجعته الآيات السابقة لطول العهد وانتشار الترف،أي أنه لا يرجع في جميع الأحوال إلى الجهل بالحدود الشرعية،لأن هؤلاء جميعا هم من أهل الكتاب.

وإذا كان الضمير في قوله تعالى: ﴿ **فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد :٢٧] يعود لأتباع سيدنا عيسى عليه السلام خاصة، فمعنى ذلك أن الآية هنا حددت الأكثرية الفاسقة في دائرة معينة هي دائرة المسيحيين.

وهكذا يتبين التناغم القائم بين جميع النصوص التي تعرضت لهذه الظاهرة سواء بالنسبة للناس كافة، أو بالنسبة لأهل الكتاب عامة أو المسيحيين منهم خاصة، إذ النتيجة واحدة وهي ﴿ **فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد :٢٦]

* * *

● المبحث الثاني: إساءة العمل والمسارعة في الإثم والعدوان:

لاشك أن لفظ الفسق يشمل السلوك البشري كله ما يتعلق بالفكر وما يتعلق بالعمل، ولكن مع ذلك فإن هناك نصوصًا تتحدث عن إساءة العمل كسلوك للأكثرية، وأخرى تتحدث عما هو أدهى وأمر وهو المسارعة في الإثم والعدوان والتنافس في ذلك عند الأغلبية.

وسنتوقف هنا عند آيتين من سورة المائدة هما:

١ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[المائدة:٦٦].

٢ـ قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[المائدة ٦٢ والمائدة٤١].

الآيتان وردتا في سياق واحد من سورة المائدة وهو الحديث عن أهل الكتاب وسلوكهم مع المؤمنين من اتباع محمد ﷺ بدءا من قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة:٥٧ـ٥٩]

فهذه الآيات تبين سلوك أهل الكتاب مع المؤمنين في مطلع بزوغ ضحى الإسلام في المدينة المنورة، إذ سورة المائدة مدنية، نزلت في فترة عز الإسلام، ومع ذلك فإن أهل الكتاب لا يزالون يكيدون للمسلمين، فيتخذون الدين الإسلامي والصلاة هزؤا ولعبًا، وينقمون من المسلمين لإيمانهم وتوحيدهم وتصديقهم بما أنزل إليهم من القرآن الكريم، وما أنزل من قبل على أنبياء الله ورسله، والسبب في ذلك كله عاملان؛ أولهما ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾[المائدة:٥٨] وثانيهما ﴿ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴾[المائدة:٥٩]، فخفة العقل وكثرة الفسق هما العاملان المحركان لسلوك بني إسرائيل خاصة وأهل الكتاب عامة ضد المسلمين، فيكثر العدوان الذي يمثل اليوم الوضع في فلسطين الجريحة صورة حية له.

وهذا السياق الذي وردت فيه الآيتان المقصودتان بالدراسة هنا يفرض علينا اتخاذ مجال أهل الكتاب فضاء لتحليل الظاهرتين ؛ ظاهرة إساءة العمل عند الأكثرية، وظاهرة المسارعة في الإثم والعدوان .

ولكن كون السياق يوجه الدلالة لتحصر في أهل الكتاب لا يتناقض مع المحور الذي نحن بصدد دراسته بصفة عامة وهو الأكثرية والأقلية في حياة البشرية.

● **المطلب الأول : إساءة العمل كسلوك للأكثرية :**

النص المراد دراسته هنا هو قول الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة:٦٥ -٦٦] .

الآية تتحدث عن أهل الكتاب، وتبين أن الأقلية منهم مقتصدة في عملها وأن الأغلبية تسيء العمل، ولكن كون الآية تتحدث عن أهل الكتاب في ذلك الوقت العصيب من حياة المسلمين لا يعني أنها مقصورة على ذلك الزمان ولا على أهل التوراة والإنجيل، بل هي الآن موجهة للبشرية بما في ذلك أهل القرآن، قال قطب رحمه الله :« ونحسب أننا لسنا في حاجة لأن نقول :إن هذا الشرط الإلهي لأهل الكتاب غير خاص بأهل الكتاب فالشرط لأهل الكتاب يتضمن الإيمان والتقوى وإقامة منهج الله المتمثل في ما أنزل إليهم في التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، وذلك بطبيعة الحال قبل البعثة الأخيرة ـ فأولى بالشرط الذين أنزل إليهم القرآن، أولى بالشرط الذين يقولون : إنهم مسلمون، فهؤلاء هم الذين يتضمن دينهم بالنص : الإيمان بما أنزل إليهم وما أنزل من قبل، والعمل بكل ما أنزل إليهم وما استبقاه الله في شرعهم من شرع من قبلهم وهم أصحاب الدين الذي لا يقبل الله غيره من أحد... فهؤلاء أولى أن يكون شرط الله وعهده

لهم... إنهم أولى أن يستمتعوا بما يشرطه الله لهم بدلا من الجوع والمرض والخوف والشظف الذي يعيشون فيه في كل أرجاء الوطن الإسلامي» (١).

وعلى هذا فإن قول الله تعالى: ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٦٦] يشير إلى موقف الإنسانية كلها من مشكلة العمل، فمن جهة كانت رسالة الإنسانية الأساسية في الدنيا هي العمران والعمل الصالح في ضوء الإيمان، ومن جهة أخرى نرى الأقلية فقط هي التي تحسن العمل ﴿ ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾[المائدة:٦٦] أي معتدلة في سلوكها وأعمالها، مستقيمة في كل تصرفاتها، أما الأغلبية فإنها متجاوزة للحدود الشرعية في كل أعمالها ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٦٦]، هكذا بتعبير يتضمن «معنى التعجب كأنه قيل وكثير منهم ما أسوأ عملهم» (٢).

فالأكثرية غلب عليها منهج الشيطان فتوطنت على أسوأ الأعمال نفوسها، واطمأنت للفساد وسوء السلوك قلوبها، وبهذا ابتعدت عن الإيمان ومقتضياته الأساسية، وهي الأعمال الصالحة التي بها وحدها تعمر الأرض بالعمران الحقيقي الذي يريح البشرية من العناء كله البدني والنفسي، ومتى ظل الإنسان بعيداً عن الإيمان كان جديراً بأن يعيش في ضنك، وهو ما وصفت به الآيات السابقة أكثرية الخلق، قال قطب: «إن الله سبحانه وتعالى - يقول لأهل الكتاب - ويصدق القول وينطبق على أهل الكتاب - إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم - وهذا جزاء الآخرة، وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله الله إليهم من التعاليم - كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل - لصلحت حياتهم الدنيا، وتمت عليهم الأرزاق، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق ووفرة النتاج وحسن التوزيع، وصلاح أمر الحياة، ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون ولا يقيمون

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٦/٩٣٥-٩٣٦

(٢) الكشاف ١/٦٣٠

منهج الله إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل مقتصدة غير مسرفة على نفسها ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٦٦][1].

إن الواقع العملي الذي تعيشه البشرية اليوم يبرهن على أن الأكثرية تسئ العمل، بل وتقف في طريق المصلحين لتصدهم عن إحسان العمل، والأمثلة على ذلك كثيرة، في الغرب وفي الشرق، وأقرب دليل إلينا من الناحية السياسية ما صنعته أمريكا بمساعدة أوروبا بدول الخليج بعد ظهور الثورة الإسلامية في إيران والتطور الاقتصادي في السعودية والكويت والإمارات إذ أشعلت بينهم فتيل القتال وحولت الإخوة في الله إلى أعداء متناحرين، ثم تدخلت بدعوى حماية المستضعفين لتحطم القوة الإيرانية والقوة العراقية بالإمكانيات السعودية والكويتية خاصة.

وكل هذا لا يفسر إلا بتفسير واحد وهو سوء العمل الذي تقبل عليه البشرية جمعاء على المستوى السياسي، وقل مثل ذلك في ما صنعته فرنسا بالجزائر في التسعينات الحمراء التي بلغ عدد القتلى من جراء التناحر بين الجزائريين بتحريش الأعداء ما يربو على مائة ألف قتيل، وقد بلغت قيمة المؤسسات المهدمة ما يربو على ثلاثين مليار دولار، فضلا عن التأخر الاقتصادي والثقافي والاجتماعي الذي بلغته الدولة، وأقرب دليل من الناحية الثقافية هذه الكثرة الكثيرة من الأفلام الفاسدة والقنوات الغربية المروجة للفساد، حتى صارت الفضيلة في الغرب وفي الشرق وصمة عار ودليل تخلف، والرذيلة عنوان التقدم والازدهار، وصار المغنّي الفاسق قدوة للشباب، والعالم الفذ نكرة مجهولة لا يعرف له عنوان.

وبالجملة فإن العالم كله يصدق عليه ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٦٦]، ولذلك وجب علينا أن نتساءل عن أسباب تفشي

---

(١) في ظلال القرآن، ٢/٦/٩٣٠-٩٣١

الفساد، وميل النفوس إلى الإساءة في العمل، وإن ظل بريق التكنولوجيا يوحي ببعض صور صلاح الأعمال التي وإن حققت للإنسان أسباب الراحة البدنية بما وفرته له من ألوان الترف، فإن هذا الترف قد جر إلى البغي والظلم بشتى صوره فأتعب النفوس والعقول ويسر للإنسان كل ألوان الإجرام؟

● **أسباب ميل النفوس إلى الفساد وإساءة العمل:**

المنطق يقضي أن يميل الجهد البشري نحو الإحسان في الأعمال، وإذا كان من الطبيعي أن يكون في المجتمعات مفسدون فإن عددهم ينبغي أن يمثل الأقلية القليلة التي يمكن التحكم فيها من قبل السلطات الحاكمة، ولكن ما هو حادث عكس ذلك تماما، إذ نسبة المفسدين في الأرض مرتفعة جدا مما يبعث على التساؤل عن الأسباب النفسية التي تدفع البشرية إلى أن يكون ﴿ **كَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة:٦٦].

إن القرآن الكريم يبين العلاقة الجدلية بين صلاح الأعمال أو فسادها وبين الأحوال النفسية بيانًا شافيًا بقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ** ﴾[محمد:١-٣]. فمعنى ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد:١] أبطلها، وقيل «أضلهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق»(١) ومعنى «أصلح بالهم» أي شأنهم وأصلح نياتهم وقلوبهم(٢) وذلك بالتوفيق في أمور الدين وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم(٣)، وقيل «المعنى أنه عصمهم عن المعاصي في حياتهم،

---

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٢٤

(٢) نفسه

(٣) الكشاف ٣ / ٥٣٠- وانظر: تفسير النسفي ٤ / ١٤٤

وأرشدهم إلى أعمال الخير»[1] ، ومدار الصلاح والفساد كله هو المرجعية، فالسبب في إبطال الأعمال اتباع خطوات الشيطان، والسبب في صلاحها اتباع الحق وهو القرآن [2]، وعلى حد تعبير ابن تيمية« من أمَّرَ السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة »[3] ومعناه أن للأعمال علاقة وطيدة بالعقائد والأفكار، وهذه مردها إلى المرجعية.

وقد تبدو بعض أعمال الكفار مزخرفة فيبدو على ظاهرها الصلاح، ومن ثم نتساءل كيف يصدر العمل الصالح عن الكافر، والحقيقة أنه « لا قيمة لعمل صالح من غير إيمان فهذا الصلاح شكلي لا يعبر عن حقيقة وراءه، والعبرة بالباعث الذي يصدر عنه العمل لا بشكل العمل، وقد يكون الباعث طيبا ولكنه حين لا يقوم على الإيمان يكون ملة عارضة أو نزوة طارئة، لا يتصل بمنهج ثابت واضح في الضمير متصل بخط سير الحياة العريض، ولا بناموس الوجود الأصيل، فلا بد من الإيمان ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه في كل اتجاهاتها وتتأثر به في كل انفعالاتها وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه، ويكون له هدفه ويكون له اطراده وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهي الذي يربط أجزاء هذا الكون كله في الناموس، ويجعل لكل عمل ولكل حركة وظيفة وأثرا في كيان هذا الوجود وفي قيامه بدوره وانتهائه إلى غايته... وإصلاح البال ـ في قوله تعالى ـ ﴿ **وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ** ﴾[محمد :٢] ـ نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر... ومتى صلح البال استقام الشعور والتفكير واطمأن القلب والضمير وارتاحت المشاعر والأعصاب ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام »[4] .

والآيات السابقة وإن ربطت الأعمال في طبيعتها بالعقيدة التي تصدر عنها فجعلت الأعمال الضالة صادرة عن أهل الكفر، وصلاح البال صادر عن أهل

---

(١) فتح القدير:٥ / ٣٠

(٢) تفسير النسفي٤ /١٤٥

(٣) ابن تيمية: التفسير ٤ / ٢٤١

(٤) في ظلال القرآن / ٥ / ٢٦ / ٣٢٨٠

الإيمان فإنها عللت ذلك بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾[محمد :٣]، فالمسألة مسألة المنهج العملي الذي يتتبعه كل صنف من البشر، فالذي يتتبع الباطل من الطبيعي أن يصل إلى نتيجة منسجمة مع ذلك المنهج، لأن ما بني على باطل فهو باطل، والذي يتتبع الحق، سيجد عمله منسجما مع القاعدة التي صدر عنها ومن ثم يثبت عمله ويكون نافعا في الآجل والعاجل، ويتأكد ذلك التعليل في السورة نفسها بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾[محمد : ٤-٥] وقوله :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾[محمد :٨-٩] ، فإحباط الأعمال ناجم عن كراهيتهم للقرآن، أي اعتماد مرجعية أخرى غيره يمليها عليهم هواهم وشيطانهم.

وإذا ثبت أن طبيعة العمل مرتبطة في حسنها وسوئها بالعقيدة كفراً وإيمانًا وكان قد ثبت لدينا في نصوص سابقة أن الأكثرية كافرة فاسقة كارهة للحق، فإنه من الطبيعي أن يكون عدد المسيئين أكثر من عدد المحسنين. وبهذا يتبين لنا أن سر قوله تعالى : ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة:٦٦] . يكمن في فهم أسرار قوله تعالى:﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾[المؤمنون : ٧٠] ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف :١٨٧] .

ولو رجعنا إلى الآية التي انطلقنا منها في دراسة الظاهرة (إساءة العمل عند الأكثرية) وهي قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[المائدة:٦٦] لوجدناها تتضمن تعليلاً كافيًا للمشكلة إذ يمكن أن نفهم الآية كما يلي : كثير منهم يسيئون العمل لأنهم لم يتبعوا الحق لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن، ولما كان صلاح الأعمال متوقفًا على حب

الحق كما أنزله الله، وكانت الأكثرية على غير هدى، فإن كثيراً من الناس ساء ما يعملون، أي أن إساءة العمل لهذه الأكثرية ناجم عن كون الأكثرية كارهة للحق، جاهلة للحقائق ميالة إلى الفسق، وكل ذلك يؤدي إلى إساءة العمل وإحباطه، وهذا الإحباط قد يكون سنة فكرية اجتماعية، كفساد الرأي وغياب الحكمة ، مما يؤدي إلى الفساد السياسي والاجتماعي، وقد يكون بأمر استئصالي من الله، ولذلك عقب الله على آية سورة محمد السابقة بقوله: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا** ﴾ [محمد: ١٠]

● **المطلب الثاني : المسارعة في الإثم والعدوان عند الأكثرية :**

يقول الله عز وجل ﴿ **وَتَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[المائدة: ٦٢] .

هذه الآية تتحدث عن الظاهرة السابقة نفسها -إساءة العمل- بدليل قوله تعالى: ﴿ **لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٦٢] وإنما أفردناها بمطلب لأنها جسدت ثلاثة أفعال سيئة يسارع إليها الكفار من أهل الكتاب، وهي الإثم والعدوان و أكل السحت، فهذه الأعمال الثلاثة لا يمارسها الأكثرية فقط بل يسارعون إلى ممارستها، فالمسألة إذن تتطلب أن نقف عند وجهين لهذه الظاهرة، وهما : طبيعة هذه الأفعال السيئة الثلاثة، وسبب المسارعة لفعلها، إذ يبدو أن الدافع إليها قوي بحيث شحن النفس لتنطلق نحو الإثم والعدوان وأكل السحت بسرعة، ومعنى الآية: ترى أكثر أهل الكتاب يبادرون بسرعة إلى تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكل أموالهم بالباطل فبئس العمل الذي يعملون[١]، والإثم ما كان مختصا بالشخص ذاته، أما العدوان فهو ما تعدى الشخص لغيره [٢] .

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٢ / ٧٤ (٢) الكشاف : ١ / ٦٢٦

ويبدو أن هذا الفرق بين الإثم والعدوان هو السر في سكوت الآية الموالية عن العدوان في قوله تعالى :﴿ **لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾[المائدة : ٦٣] فالمسألة مسألة تغيير المنكر والنهي عنه، وهو أمر يتطلب إرادة وقدرة « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[١] ، والقدرة في النهي عن العمل الشخصي كالإثم وأكل السحت متوفرة لدى الربانيين وهم علماء النصارى، والأحبار وهم علماء اليهود، كما هي متوفرة عند الفقهاء والأئمة من علماء المسلمين، أما في النهي عن العدوان فيندر أن تتحقق القدرة لدى العلماء، وإنما تتحقق القدرة المكافئة لذلك عند السلطان أو عند الجماعة، قال القرطبي « قال العلماء : الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، وباللسان على العلماء، وبالقلب على الضعفاء يعني العوام »[٢] وفي صحيح الترمذي : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده »[٣] . فتحدثت نصوص الحديث عن العدوان والظلم ولم تتحدث هنا عن الإثم وأكل السحت، لأنه داخل في رسالة الفقهاء بينما العدوان يدخل النهي عنه في رسالة الجماعة، والله أعلم .

والآيتان تضمنتا توبيخين، الأول لمن يسارع في الإثم والعدوان وأكل السحت : ﴿ **لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[المائدة : ٦٢] والثاني لمن يرى المنكر ويسكت عليه ﴿ **لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ والصنع بمعنى العمل إلا أنه يقتضي الجودة[٤] .

---

(١) صحيح مسلم وانظر القرطبي : الجامع : ٤ / ٤٩ـ تفسير ابن كثير : ١ / ٢، ٣٩١ / ٨٤.

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٤ / ٤٩

(٣) سنن الترمذي الجزء الخاص بالتفسير / ١ / ٢٥٦ ـ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٣ / ٦١٧ / ٢٣٧ـ تفسير ابن تيمية : ١٤ / ٤٧٦

(٤) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٦ / ٢٣٧

والأكثرية التي تشير إليها الآية تدور حول السرعة التي تعني هنا تسابق الناس على فعل الإثم والعدوان وأكل السحت، وفعل المضارع ﴿ **يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[المائدة:٦٢] يفيد تكرار العمل والسرعة فيه وتجديدهما، مما يدل على سر الكثرة الفاعلة لكل تلك النقائص، فالآية تصور القوم كأنما يتسابقون تسابقا في الإثم والعدوان وأكل الحرام، وهي صورة ترسم بهدف تبشيع الفعل والتشنيع به، ولكنها تصور كذلك حالات النفوس و أحوال الجماعات حين يستشري فيها الفساد وتسقط القيم ويسيطر الشر، وإن الإنسان ينظر إلى المجتمعات التي انتهت إلى مثل هذه الحال فيرى كأنما كل من فيها يتسابقون إلى الشر؛ إلى الإثم والعدوان، قويهم وضعيفهم سواء، فالإثم والعدوان، في المجتمعات الهابطة الفاسدة لا يقتصر على الأقوياء، بل يرتكبها كذلك الضعفاء، فحتى هؤلاء ينساقون في تيار الإثم، وحتى هؤلاء يملكون الاعتداء، إنهم لا يملكون الاعتداء على الأقوياء طبعا، ولكن يعتدي بعضهم على بعض، ويعتدون على حرمات الله؛ لأنها هي التي تكوِّن في المجتمعات الفاسدة الحمى المستباح الذي لا حارس له من حاكم ولا محكوم، فالإثم والعدوان طابع المجتمع حين يفسد، والمسارعة فيهما عمل هذه المجتمعات وكذلك كان مجتمع يهود في تلك الأيام .. وكذلك أكلهم للحرام.. فأكل الحرام كذلك سمة يهود في كل آن ﴿ **لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[المائدة:٦٢] (١).

فالآية وصف لحقيقة نفسية تمثل تسابق الناس وتنافسهم في الإثم والعدوان وأكل السحت على الخصوص، والآية (٦٣)من سورة المائدة نفسها تؤكد أن علماء اليهود والمسيحيين لم يكونوا ينهضون بواجبهم نحو البشرية ليوقفوا هذه النفوس المتنا فسة على فعل الشر، وكل ذلك يعني أن أكثرية بني آدم يسارعون في الإثم والعدوان وأكل السحت، أقوياء كانوا أو ضعفاء، فقراء أو أغنياء، سادة أو عبيداً، ومن هنا وجب علينا أن نتساءل عن الأسباب النفسية التي تدفع البشرية للإقبال على هذه الأفعال الثلاثة بسرعة تعبر عن التنافس السافل؟.

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٦/٩٢٨

هل يكون السبب نابعًا من طبيعة الأفعال الثلاثة نفسها؟

هل يكون السبب نابعًا من نزغات الشيطان؟

● **أسباب التسارع في الإثم والعدوان:**

إن إقبال الأكثرية على الإثم بسرعة قد يكون سببه غياب الزواجر، وقلة العلماء الذين يبصّرون الناس بعواقب الأمور، إذ أن الترهيب من العواقب من شأنه أن ينشئ في النفوس كوابح، تجعلها تتردد كثيرا عند الإقبال على الآثام التي تمثل في جوهرها أفعال الإنسان الصادرة بدافع الرغبات النفسية المتعلقة بالغرائز، فلكي يلبي الإنسان غرائزه تجده يصارع ضميره الخلقي،فإما أن ينتصر فعلُ التقوى، وإما أن تنتصر الدوافع الغريزية فيقع الإنسان في الآثام، فإن غاب أسلوب الترهيب تحولت النفس من مستوى النفس المطمئنة إلى مستوى النفس اللوامة، ثم إلى مستوى النفس الأمارة بالسوء ، وهذا الأخير هو الذي يحدث فيه التنافس على الآثام.

وهذا المستوى من التسارع في الإثم يعبر عن حالة بلغها المجتمع بسبب غياب الدعاة، حتى صار التباهي بفعل الآثام عنوانًا للحضارة والتقدم، فأدى إلى التنافس فيه، والحال مشاهد اليوم في الغرب الأمريكي والأوروبي حيث التوقف التام الذي يشبه الشلل الذي أصيب به علماء أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين بشكل واضح، وقد بدأت شعوب المشرق تأخذه تقليداً، كما تعكسه الأغنية والأفلام السينمائية وسلوك الطلبة في الجامعات وما إلى ذلك.

ولا شك أن غياب صوت الدعاة أمر أساسي كما بينت الآية ﴿**لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ**﴾[المائدة:٦٣] ولكن للشيطان أيضا دوره الكبير في توجيه الناس نحو فعل الإثم، ولعل الأمرين غاية في التكامل، كما يبين الأثر الذي ينص على أن فناء قرية أهون على الله من موت عالم واحد يتعبد، وقد جاء في الأثر: « لموت عالم أحب على إبليس من موت سبعين عابدا »(١).

(١) شرطي التعريف في فضل حملة العلم الشريف: ١/ ٣٩ الحديث

وقد يكون للتسارع في العدوان سبب آخر، وهو غياب السلطان الذي يقيم الحدود أو غياب القضاة العدول الذين يحكمون في الناس بالقسط، أو انتشار الرشوة في الوسط القضائي وشرطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قد يكون للتسارع في أكل السحت أسبابه المختلفة عن الأسباب المذكورة كلها، فتكون غريزة حب التملك قد بلغت ذروتها، بسبب غياب الوعظ والإرشاد، وانتشار دواعي التنافس على المال، والنفس أصلاً مجبولة على ذلك ﴿ **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾[الفجر: ٢٠] فقد يكون لكل مرض من الأمراض الثلاثة (الإثم والعدوان وأكل السحت)أسبابه الخاصة، ولكن العامل المشترك بينها جميعا هو غياب العلماء ونشاط الشيطان، ولذلك أكد القرآن على أهمية الاستعاذة بالله منه، فقال: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]

* * *

● **المبحث الثالث : القتل والإيذاء:**

قتل النفس إسراف شديد في تجاوز حدود الله، وإسراف في التعدي على حرمة البشرية، ولذلك شددت الآيات في بيان حجم ذلك الجرم بقوله تعالى ﴿ **مِن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾[المائدة: ٣٢] ثم عقب على الآية ليبين إسراف الإنسان في التعدي فقال: ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ** ﴾[المائدة: ٣٢] ، والمفعول به في الآية محذوف، وأحسب أنه يعود على ما سبق وهو قتل النفس، وإذا كان كذلك فمعناه أن تقدير الآية « ثم إن كثيرا من الناس بعد أن نزلت الآيات البينات لشريعة الله في تحريم قتل النفس أسرفوا في القتل بغير حق ».

ونحن حينما نقرأ بعض النصوص القرآنية الأخرى نتبين ذلك بصورة واضحة، إذ تبين بعضها أن الإنسان زينت له جريمة قتل النفس كما زينت له